كلمة أخيرة الى الدكتور النويهي

المادّية الجدليّة : لا غلوّ ولا تحريفيّة ..

بقلم محمد عيتاني

اوضح الدكتور محمد النويهي في رده الاخير بمجلة « الآداب » (العدد العاشر ـ اكتوبر ـ تشرين الاول ١٩٧١) انه يود ان يعتبر الحوار بيننا منتهيا ، قائلا انه لن يستطيع ، مهما يطل النقاش ، ان يقنعني برأيه ، وانني مهما اطل النقاش لن اقنعه برأيي .

وتلطف الدكتور فطلب الاكتفاء بنقاط الالتقاء التي توصلنا اليها معا ، وهي كثيرة ، في رأيه (وفي رأيي أيضا ، وذلك امر يسعدني ، طبعا) . ويمكن ايجاز نقاط الالتقاء هذه بان جميع القوى الديمقراطية المؤمنة بوطنها العربي ومستقبل وحدته وتحرره وتحضره ، ينبغي ان تلتقي في جبهة واحدة عريضة ، للنضال ضد قوى الاستعمار والصهيونية ، والرجعية العربية . بصرف النظر عن الخلافات الجزئية في بعض وجهات النظر . وهذا فعلا شيء هام . وقد كان يمكن ان ارى من جهتي امكان انهاء الحوار ، الخصب ولا شك ، بالنسبة لي على الاقل ، فقد دلني على نواقص في ثقافتي ومعرفتي بتاريخ شعبنا العربي ، وآدابه ، وحركة نشوء الاسلام وتطوره ، ونمو المجتمع العربي الاسلامي بعد انتصار الدعوة الاسلامية . وبديهي انني ساعمد الى استكمال ثقافتي في هذا الميدان ، وسد نواقصي . ولكن حتى الان ، ورغم جميع الاضواء التي جهد الصديق الدكتور النويهي لالقائها على تلك الحقبة من تاريخ شعبنا العربي ، فان السؤال الرئيسي الذي طرحه في مقاله الاول المنشور ، منذ اعداد في مجلة « الآداب » تحت عنوان « الشعر والحضارة » حول عودة العصبية ـ « الجاهلية ؟ » ـ الى مجتمعات صدر الاسلام العربية ، وارتداء الغالبية العظمى من عرب تلك الايام ، ولا سيما مجموعاتهم الشعبية الواسعة ، الى عقليات الجاهلية « وما انا الا من غزية ... » « انصر اخاك ظالما او مظلوما ... الخ » ، اي عودة السواد الاعظم من الناس العرب ، ولا سيما في ظل الخلافة الاموية ، الى التمسك بقيم البداءة ، هذه القيم الضيقة ، القائمة على الولاء لوحدة صغيرة جدا من وحدات التكوين الاجتماعي العربي الاسلامي ، الذي كان آخذا في التجلي والتبلور ، وهي القبيلة المعادية للتجمع والتحضر والتقدم في ميادين العمران المادي والبناء الثقافي الروحي ، متخلية ، في تصور الدكتور الناقد المحترم ، عن الجوهر الثوري الانساني الايجابي الذي جاءت به الدعوة الاسلامية . هذا الاستنتاج طرح سؤالا هاما لم يلاق حتى الان اجابة وافية مقنعة ، يقدمها باحث مختص في هذا الميدان كالدكتور محمد النويهي .

كان الجواب الذي تراءى لي ، في حدود معرفتي ، غير المختصة ، بوقائع تلك الحقبة من تاريخنا ، وخاصة من انجازاتها الحضارية المعروفة لدى الجميع ، ومن خط سيرها ، ان فرضية انتكاس جماهير الناس العرب وارتدادهم عن القيم الاسلامية الثورية الجديدة ، هي فرضية لم يتمكن الباحث الكبير ، من تقديم الاثباتات الكافية لها . في حين ان معالم عملية تحضر العرب ، والمسلمين ، في ظل الخلافة الاموية ، فالعباسية ، وانجازات العرب الحضارية التي يعرفها الدكتور النويهي ولا شك حق المعرفة ، تنهض دليلا ماديا وفكريا ، لا مجال لدحضه ، على ان الاسلام ، عبر التكوينات العربية والاسلامية ، طوال قرون مديدة ، حتى عهد الحمدانيين وربما الايوبيين والاخشيديين ، (وهل ننسى انجازات الفاطميين ، ايضا) ؟ قد حقق اهدافه الرئيسية بالعدة البشرية التي توفرت له في تلك العصور . صحيح ان المجتمعات العربية والاسلامية ، منذ انتصار الدعوة الاسلامية ، حتى ايامنا هذه ، مجتمعات معقدة العناصر والبنى البشرية والاقتصادية والثقافية ، وما زال في خارطة تفسيرها ومنحها واستكناه حقيقة تطورها وسيرها وانتكاسها كثير من البقع البيضاء ، رغم كل ما فعله حتى اليوم ، المستشرقون الاجانب الكبار ، وبعدهم الباحثون العرب ، والمسلمون ، منذ زهاء قرن ونصف القرن حتى اليوم ، ولكن لا نستطيع اية نظرية او فرضية ان تنكر اللحظات الحضارية ـ الذرى التي بلغتها الدولة العربية الاسلامية ، لا سيما في عهد الخلافتين الاموية والعباسية ، وفي الاندلس ، وفي مصر الفاطمية ، من مستويات في ميادين الانتاج المادي والصناعات الحرفية وقطاعات الفكر والفلسفة والعلوم والفن ، هذه المستويات التي لا يمكن باي حال من الاحوال ، المماثلة بينها وبين منظور البداوة القبلية وعقليات و« انجازات »العرب الجاهليين . ويبقى السؤال مطروحا على امتداد تاريخنا العربي الاسلامي ، كله ، بل هو يتفرع ، في الحقيقة الى العديد من الاسئلة : الى اي حد كان الارتداد العربي ، بعد انتصار الدعوة الاسلامية الى عقليات الجاهلية ، وكيف تمكن العرب والمسلمون من ابداع حضارتهم العظيمة ، التي اعطت البشرية انجازات اساسية في جميع ميادين الحضارة والعلم والفن ، رغم وجود تلك العناصر الانتكاسية ، ومع فعلها في صميم التكوينات الاجتماعية العربية حتى اليوم ؟ واين اصبحت النهضة العربية اليوم ؟ وهل الصورة تميل الى السواد والقتامة وتدعو للتشاؤم ، على نحو ما يصورها به الدكتور النويهي ،

ام أن جوانب الضوء والحركة والتقدم نحو مواقع حضارية ثابتة ، هي الغالبة في حاضرنا العربي اليوم ؟ صحيح ان الدكتور النويهي يقرن بضرورة النضال وامكانياته ، الصورة السوداء القاتمة التي يعطيها عن مجتمعنا العربي الحاضر المجزأ ، والمحتل المستعمر اليوم في بعض اجزائه ، من قوى الاستعمار والصهيونية والرجعية ، ولكن هل ان تشخيصه الذي اعطاه في مقالته الاولى « الشعر والحضارة » صحيح ؟ في رأيي ان هذه الموضوعة الهامة والخطيرة والاساسية ، كما سبق لي القول ، والتي تتلخص بتحديد النسبة عبر التاريخ العربي ، بين قوى الرجعية والتحضر ، ووافعها العياني اليوم ، ما زالت بحاجة الى دراسة من الباحثين المختصين امثال الدكتور النويهي ، لا سيما بعد ان طمأننا الى انه لا ينسى المادية التاريخية في دراساته ، وان كان لا يسميها * .

اذن ، فالموضوع الاساسي ، الذي كان منطلقا للحوار بيني وبين باحثنا الجليل ، لم تلق عليه بعد ، الاضواء الكافية ، وقد ساعد على طمس بعض جوانب الموضوع اضطرارنا ، معا ، لخوض النقاش حول مسائل منهجية تتعلق بالمادية الجدلية وطريقة فهمها وتطبيقها وحدودها ، لكنني اعتقد ان تدقيق النقاش في هذه الموضوعات ، و « حفر » المواقع والصيغ ، والتحديد والرؤيات ، في هذا الميدان المنهجي ، ليست ، كلها ، وقتا ضائعا .

بعد هذه الايضاحات ، التي اود ان تكون اهابة مني للدكتور النويهي ، ولسواه من المختصين في دراسة تاريخنا العربي الاسلامي، بمواصلة جهودهم في هذا الميدان ، فالدراسة العلمية ، المادية ، الوطيدة المرتكزات ، وانطلاقا من نظرة عقلانية يرفدها جميع انجازات العلوم الانسانية الحديثة ، هي خير اضاءة تقدم عن حاضر شعبنا العربي الكبير .

* * *

كان يمكنني ان إختم الحديث عند هذه النقطة ، لولا ان الدكتور قد اودع رده الاخير القيّم ، والمفعم بواضعا وتعلقا بالحقيقة ، حكما على المفاهيم النظرية لكاتب هذه السطور ، اراده ان يكون حكما جازما قاطعا ، ينهي به الحوار كله ، مما لا يسعني الموافقة عليه .. وارجو ان يتسع صبر الناقد الكبير وصدر هيئة تحرير « الاداب » ، وصبر القراء ايضا ، الى عرض هذا الحكم الذي اصدره الدكتور النويهي على مفاهيمي الايديولوجية والمنهجية ، ومناقشته ، واعطاء رأيي في القضايا المسالية problématiques التي طرحها ، ثم ينتهي الحوار ، من جهتي ، ويبقى للدكتور النويهي ان يقول كلمته في كلا الموضوعين الاساسيين المعروضين في مقالي هذا ، او ينصرف الى موضوعات اخرى . فالامر عائد اليه ، ومتروك لتقديره .

يقول الدكتور النويهي في رده الاخير : « انا ، اذن ، لم اقل باقتصار المذهب المادي الجدلي على « موضوعات معينة ، بل زعمت تحدده في « جوانب » معينة من كل مشكلة » .

ويقول « اما الفريق الثاني الذي عارضته ـ المقصود من سماهم الدكتور نويهي « غلاة الماركسيين المتعصبين » (*) ـ فهو الذي يعتقد ان المذهب المادي الجدلي وحده يكفي لشرح كل الجوانب في اي موضوع يدرس وهؤلاء في نظري هم ايضا غلاة ، ومنهم الاستاذ عيتاني كما هو واضح ، برغم كل ما لاحظناه من نزاهته وامانته ، وبحكم انتمائه المذهبي الذي يحتم عليه هذا الموقف . الم يقل في اول مقالته ان المادية الجدلية (هي الطريقة العلمية الاساسية ـ والوحيدة ـ الصالحة لدراسة حركة الطبيعة والمجتمع والفكر وتأسيس نضال انساني على اساسها لتغيير حياة الانسان نحو الافضل) ؟ » .

الدكتور النويهي يرى في هذا القول غلوا مذهبيا ، وتعصبا لا يستطيع قبوله ، ولكن ارجو ان لا يعتبر الدكتور اصراري على هذا الموقف ، ومحاولتي ايضاحه في ما يلي ، نوعا من الافراط في الغلو المذهبي والتعصب . وعلى كل حال ، فانني اجد هذا الحكم الذي اصدره عليّ الدكتور النويهي ، مجحفا بحق مفاهيمي ، والمنهج الذي انتسب اليه ، او طريقة فهمي لهذا المنهج ، اذا شاء الدكتور لذلك جئت استانف الحكم المذكور ، بتقديمي الايضاحات التالية :

ان المادية الجدلية ليست مجرد طريقة علمية او فكرية او فلسفية تأملية ، بل هي طريقة لاضاءة نضال الطبقة العاملة العالمية وحلفائها من سائر الشغيلة وضحايا الاستغلال والاضطهاد ، في كل وطن من اوطانها ، وكشف الواقع امامها ، لتؤسس على حقائق هذا الواقع ، الذي يكون مرتبطا بوضعها المعيشي والطبقي والثقافي والإجتماعي عامة ، لكي تؤسس نضالها عليه ، وتحشد قواها ، قوى الطبقة العاملة وحلفائها الفلاحين والطبقات البورجوازية الصغيرة ـ في بلدان العالم الثالث ، ومنها وطننا العربي طبعا ، وربما اولا ـ والمثقفين الثوريين ، في جبهة تتزايد قواها ، بفعل حركة التاريخ ، وتطور الاقتصاد ، وتأزم التناقضات ، ووقائع نضال الشعوب ضد هجوم الامبريالية في المرحلة التي تعنينا من عمر الماركسية ـ اللينينية ، ولا بد ان تكون هي ، بالاخص مرحلة تحررنا نحن العرب من الاحتلال الاستعماري ، والاغتصاب التوسعي الاستيطاني الصهيوني ، وضغوط الامبريالية وعدوانها ، ونضالنا لتوحيد شعبنا العربي الكبير ، وطرد المستعمر الدخيل منه ، والخلاص من لعنة التجزئة .

اذن ، فالمسالة لا تتعلق بابحاث نظرية مجردة ، بل بالدراسة العلمية لتطور الواقع التاريخي الموضوعي ، وكشف قوانين سير هذا الواقع ، وتأسيس نضال بشري يستند الى قاعدة صلبة وركائز وطيدة .

في هذا المجال لا يستطيع امثالي سوى القول « ان الطريقة المادية الجدلية هي الطريقة العلمية الاساسية ـ والوحيدة ـ الصالحة لدراسة حركة الطبيعة والمجتمع والفكر ، وتأسيس نضال انساني على اساسها لتغيير حياة الانسان نحو الافضل » .

فهل يعرف الدكتور طريقة اساسية اخرى ، غير المادية الجدلية يستطيع العمال والفلاحون وفئات البورجوازية الصغيرة ، والمثقفون الثوريون ، وبعض قطاعات الطبقة الوسطى في بعض البلدان العربية التي ما تزال مبتلاة بعار الحكم الاقطاعي الظلامي المطلق ، يستطيعون ان يؤسسوا عليها نضالهم لاجل صد هجوم الامبريالية والاستعمار الجديد ، وهدم قلاع الاستثمار والاضطهاد والاستلاب ، واقامة مجتمعات عصرية حديثة ، يعيش فيها الناس حياة متحضرة ، لهم فيها الكرامة ، والنور ، وآفاق التقدم ؟

لكن الماركسية اللينينية ، لانها فلسفة الطبقة العاملة وجميع ضحايا الاستغلال ، في كل بلد من بلدان العالم ، وفي كل امة من امم المتحررة منها والنامية او المستعمرة ـ بفتح الميم ـ هؤلاء الذين لا يخشون الحقيقة ، لان الحقيقة ثورية كما يقول لينين ، ولان الكشف عن حقائق الواقع ستكون في خدمة ـ ومن اجل مصلحة ـ هذه الجماهير . لذلك فان مؤسسي الماركسية ، وقدوتهم الاساسية في كيفية صياغة مبادىء ونظرية المادية الجدلية ، ونظرية المعرفة القائمة في اساسها ، ماركس ، وانجلس ، ولينين ، قد اسسوا ، كما يقول الدكتور نفسه ، في مقال سابق ، منهجا منفتحا ، ولم يشيدوا مذهبا ، من الاسمنت المسلح ، او الفولاذ الكتيم ، مغلقا ناجزا ، غريبا عن التطور والاغتناء والاكتساب من المناهج الاخرى والمدارس الثانية كل ما تثبت صحته في ميادين العلم على اختلافها ، من العلوم الانسانية ، والطبيعية ، والعلوم المضبوطة ، وغيرها من ميادين البحث .

(*) يستطيع الدكتور النويهي ان يغير كثيرا في هذا الميدان من ابحاث محددة وثمينة اجراها « مركز الدراسات الماركسية » في باريس ونشرها في كتاب تحت عنوان « نمط الانتاج الاسيوي ـ المجتمعات ما قبل الرأسمالية » .

(*) ملاحظة مني .

اظن ان الدكتور النويهي لن يستطيع ان يسمي طريقة اخرى غير الطريقة المادية الجدلية يمكن احلالها محلها في قيادة نضال الجماهير الشعبية لبناء مجتمع عربي متحرر موحد متحضر خلاق . وذلك لسبب بسيط ، وهو ان هذه الطريقة اثبتت صلاحيتها وعبرت عن امكاناتها في مجتمعات اخرى عديدة ، غير المجتمع العربي ، وانشأت خلال ما لا يزيد عن خمسين عاما ، بعد نضال استمر عشرين او ثلاثين عاما (في بلاد ثورة اوكتوبر الاشتراكية الكبرى ، مثلا) مجتمعات كبيرة التطور ظاهرة الحضارة ، منتشلة هذه المجتمعات من حالات تخلف وبؤس وتدهور واستلاب ، كانت اشد بكثير مما يعانيه بعض اجزاء امتنا العربية اليوم .

اما قول الدكتور النويهي بانه لم يقل باقتصار المادية الجدلية على موضوعات معينة بل على « جوانب من هذه الموضوعات » ، فهو قول يجافيه المنطق ، ولا سيما المنطق المادي الجدلي ، نظريا وعمليا . فمن الناحية النظرية ، فان تقسيم الموضوعات الى جوانب ، مناقض لاسس الفلسفة بعامة ، حتى لمباديء مختلف مدارس الفلسفة الغيبية والمثالية بجميع فئاتها ونزعاتها . البحث العلمي ، والتنظير العقلاني ، والفكر الفلسفي ، علة وجودها ان تستطيع التعميم ، والوصول الى اكتشاف القانون العام الذي يحكم حركة هذه الظاهرة او تلك من ظاهرات العالم، وبالاحرى ان يكون هذا هو موقف المادية الجدلية ، التي تطمح الى ان تسير في طليعة حركة الفكر والعلم والنضال البشري . وبديهي انه ليس في وسع البحث العلمي ، الجدير بهذا الاسم ، ان يقتصر على جانب ، او جوانب معينة من ظاهرة معينة ، هي مجال اختصاص ، او قسم معين من موضوع . وتتبين استحالة فكرة الدكتور النويهي ، بصورة اوضح واكثر سطوعا ، حين ننقلها الى الميدان العملي ، التطبيقي ، ميدان الممارسة والفعل . فمن الذي يحدد للباحث الجانب الذي يستطيع ان يبحثه ، والجانب الاخر الذي لا يستطيع ، واستنادا الى اية معايير ، يا دكتور ؟ لا سيما ونحن نتحدث في الثلث الاخير من القرن العشرين ، عصر تكامل المعارف البشرية ، وسهولة الاطلاع على الانجازات الرئيسية في كل علم من العلوم ، وكل فرع من فروعه ، بل اضطرار العالم الطليعي الى هذا الاطلاع الواسع المتكامل .

لقد وضعت المادية الجدلية نصب عينيها ، منذ ان اسسها ماركس وانجلس ، ابتداء من منتصف القرن الماضي ، مطمحا كبيرا وخطيرا ، وهي ان تكون النظرية العلمية الشاملة ، التي تستطيع ان تعتمدها فعلا جماهير الطبقات العاملة ، الاكثر تقدما ، في جوهر الامر وحقيقته ، وهي الطبقات الخاضعة للاستغلال والاستثمار ، لكي تؤسس على تلك النظرية نضالها في هذا العصر ، عصر احتدام التناقضات بين قوتي المجتمع الرئيسيتين الطبقة العاملة ، والطبقة الرأسمالية . وارادت الماركسية ، واستطاعت ، ان تكتشف القوانين الاساسية العامة التي تحكم حركة الطبيعة والمجتمع والفكر ، وتقيم منها منهجا متكاملا شموليا ، منفتحا ، بمثابة شرط اساسي لفعاليته وحيويته ، امام جميع الانجازات العلمية يحققه علماء اخرون ، غير ماركسيين ، او تحققه المدارس والنزعات الاخرى غير الماركسية . وذلك ، لكي تكون هذه النظرية ، المادية الجدلية ، السلاح الاساسي في ايدي العمال والفلاحين وسائر ضحايا الاستغلال ، والمثقفين الثوريين ، للهجوم على قلاع الرأسمال والاستثمار ، والطغيان الامبريالي ، والرجعي الظلامي ، وهدم جميع بنى التخلف والاستلاب ، وبناء مجتمعات انسانية ، عصرية، متحررة ومتحضرة .

يبقى ان نفهم جيدا موقف المادية الجدلية ، المتطورة باستمرار ، والمفتتنية على الدوام ، من « المناهج الفكرية الاخرى » كما يقول الدكتور النويهي .

الدكتور النويهي يعتقد انني حين اقول ان المادية الجدلية هي الطريقة الوحيدة المتلاحمة المتجانسة ، ذات الوحدة الايديولوجية والنشاط العملي لاجل تغيير حياة الانسان ، وبالتالي لكشف القوانين الرئيسية في جميع ميادين الطبيعة والمجتمع والفكر ، فذلك يعني انني اغلق امام الماركسية ابواب التقدم ، والافادة من « المناهج الفكرية الاخرى » وسائر النزعات والاجتهادات والابحاث الفردية والاجتماعية في كل ميدان على حدة . لذلك فهو يصنفني بين « الغلاة » و « المتعصبين» ويكاد لا يفرق بيني وبين غلاة ومتعصبي « المذاهب الدينية المتعصبة التي طالما شقيت بها البشرية » . سامحك الله يا دكتور !

ان كل تاريخ المادية الجدلية في مسيرتها العلمية والنضالية الطويلة ، منذ صدور ابحاث ماركس الاولى في منتصف اربعينات القرن الماضي ، حتى اليوم ، حيث اصبحت العقول الجماعية الكبرى، عقول فصائل قيادات الشعوب الاشتراكية والحركات التقدمية في سائر ارجاء العالم هي التي تسهم ؟ احيانا بواسطة فلاسفة افراد كبار، ينجحون في تحقيق الاكتشافات والتنظيرات ، وصياغة المناهج العلمية الكبيرة ، واحيانا على يد التنظيمات البروليتارية التي يتعاون اعضاؤها لدراسة وفهم مختلف ظواهر الحياة المحيطة بهم ،وصياغة مفاهيم علمية لهذه الظواهر ، اقول ان كل تاريخ المادية الجدلية الخلاقة ، منذ منتصف اربعينات القرن الماضي حتى اليوم، يدل على انها اذا كانت قد اصبحت هي الطريقة العلمية الوحيدة لفهم قوانين الطبيعة والمجتمع والفكر وتأسيس نضال الانسان على ركائزها ،فذلك يعود الى حد كبير الى انها اتخذت بمثابة مبدأ اساسي من مبادئها، وشرط جوهري من شروط تطورها ، انها يجب ان تكون نظرية علمية انتقادية متطورة ، بعيدة عن العزلة الاكتفائية والغرور العاجز ، والدوغمائية المدمرة ، وذلك ما فعله ماركس بالنسبة لجميع ما سبقه وما عاصره من فلسفة وفلاسفة ، ومن بحث وباحثين ، وعلم وعلماء. لقد قدم ماركس في كتابه « رأس المال » وسائر اعماله نموذجا مبدعا لعملية البحث عن « ذرات المعرفة » ابتداء من فلاسفة الاغريق وانتهاء برفاقه واصدقائه الهيغليين الجدد (اليسار الهيغلي الذي جمد افكاره عند مفاهيم فوضوية،وطوباوية ، لفلسفة هيغل ولحركة التاريخ ،وآفاق تحرير المانيا تلك الايام من التجزئة ، والحكم الملكي الاقطاعي، والاستبداد البيروقراطي ، والتخلف الاقتصادي) .

وما كان في وسع ماركس ان ينشيء المادية الجدلية ، لولا استناده الى مبدأ اخذ الاشياء العلمية الصحيحة ، والمبادىء الفلسفية الحية، والانجازات الفكرية ذات القيمة الحقيقية لدى الفلاسفة والمفكرين والعلماء الآخرين ثم صياغة هذه كلها وفقا لمبادىء الجدلية . كان ياخذ الانجازات العلمية التي يثبت صحتها معيار الممارسة العملية، مثلا ، او معيار المنطق المادي الجدلي . كما كان ينبذ الافكار والمبادىء والاحكام التي تتنافى والمنهج الانتقادي العلمي لدى الماركسية، مهما كان لمعان تلك الافكار والمبادىء والاحكام في ايامها ، ومهما بلغ من شيوعها وشهرة اصحابها . لقد استخلص ماركس جوهر طريقته الجدلية من تعاليم هيغل العظيم ، ولكن بعد ان قام بعملية انتقاد كاملة لهذا الفيلسوف الذي كان يعتبر ذروة الفكر البشري في ايامه ، والذي ما زال في الحقيقة احد اقطاب الفكر البشري الكبار . ان الماركسية لم تنبع من قلب الطبقة العاملة ، بل جاءتها من الخارج ، لانه كان يريد تأسيس علم حي متطور ، كشاف للطريق ، قائد الى الثورة ، فقد استخلص ماركس المادية الجدلية من ارقى ما وصل اليه عصره من فلسفة وعلوم : الفلسفة الالمانية ، والمادية الفرنسية ،والاقتصاد السياسي الانكليزي . ولولا تعمق كارل ماركس في دراسة اعمال الاقتصادي الانكليزي البورجوازي ريكاردو ، في موضوع « القيمة »(اي قيمة السلعة الاقتصادية المصنوعة ، وتحديد عناصرها المكونة ،والقانون الذي يتحكم في تطورها وبناها ، وبالتالي دراسة جميع القيم الاقتصادية وغيرها في المجتمع) مع نقد ماركس لاستنتاجات ريكاردو ، لما كان بامكان ماركس ان يكتشف قانون « القيمة الزائدة » او « فائض

القيمة » La plus - value وهو الحجر الاساسي في علم الاقتصاد الماركسي ، ونقطة التحول الخطيرة في ادراك ممثلي وقادة الطبقة العاملة العالمية لحقيقة ما تخضع له من استغلال واستثمار.

وطوال تطورها ، ظلت المادية الجدلية ، وما تزال تحتفظ بهذه « التقاليد » ، تقاليد الانفتاح على المدارس الاخرى ، والمناهج الاخرى، واعمال العلماء الآخرين ، والاستفادة من كل ذرة حقيقة يوجدها البحث العلمي ، في اي ميدان من الميادين .

فطوال حياة لينين ونضاله وقبل انتصار العمال والفلاحين الروس بقيادته ، في ثورة اوكتوبر ، وبعد الثورة ، ظل هذا القائد العالم، مستمر الاطلاع على ابحاث العلماء الآخرين وانجازاتهم واجتهاداتهم.كان يقرأ احصاءات خصومه « الشعبيين » ، ومعلوماتهم الاقتصادية ، وتقاريرهم عن زياراتهم لقرى الروسيا ، ومدنها ، ويسجل كل ما يراه مفيدا له في ابحاثه الثورية ، لكن ذلك لم يمنعه من نقد المفاهيم النظرية لقادة هذه الحركة ، ودحض نظريتهم البورجوازية الصغيرة، الناظرة الى وراء ، الى روسيا الفلاحية ، ذات الانتاج الحرفي الصغير، والعقلية الرجعية .

ومن اجل دحض نظرية معادية للماركسية ، أخذت ، بعد اخفاق ثورة ١٩٠٥ في روسيا ، تروج رواجا كبيرا حتى بين مناضلي الحزب الاشتراكي الديمقراطي (الحزب البلشفي ، فالشيوعي فيما بعد) وهي فلسفة « النقد التجريبي » Empirio - criticisme بزعامة ماخ Mach

كان على لينين ان يتعمق في دراسة واقع حركة العلم في ايامه ،ولا سيما اوضاع علم الفيزياء ، لان ماخ ورفاقه ، كانوا يعتمدون على ظهور نظرية امكانية تحطيم الذرة ، التي كان قد اثبتها كبار علماء الفيزياء في ذلك الزمن ، ليتنادوا بان المادة لا وجود لها في الواقع، وان ما نراه وبالشكل الذي نراه ، من أشياء ان هو الا مجموعة ارتسامات وقناعات فكرية وسلاسل من الاوصاف والتصورات نشأت في عقولنا نتيجة خضوعنا الطويل لمظاهر الاشياء . وكان التجريبيون التقدميون يقولون : ها هو العلم الفيزيائي الطليعي التجريبي يثبت ان الذرة قابلة للتحطيم بحيث تنقسم الى قوى وطاقات ، ليس بينها ما هو صلب ، ولا جامد . انها شحنات وتموجات ودورات قوى ،وليست « مادة صلبة ملموسة » مطلقا . وبديهي ان ماخ استخدم اكتشافات كبار علماء الفيزياء في ايامه لكي يؤسس عليها فلسفة رجعية ، تبدأ بتحريف الماركسية لتنتهي الى دحضها وهدمها من الاساس . كان ماخ ورفاقه واتباعه يقولون ما يلي : انتم الماركسيين الارثوذكس «الغلاة» تقولون ان نقطة انطلاق الماركسية هي وجود الكائن قبل الوعي ، وجود المادة باستقلال عن الذهن ،وتقولون بقوانين جدلية تسري احكامها في الطبيعة ، ثم تلتمسونها في حركة المجتمع وترون ان هذا المجتمع يتحرك بفعل الصراع بين المتضادات ، على اساس الحياة الاقتصادية، التي هي في آخر تحليل سلعة ومادة ، ثم تعتبرون ان هذه القوانين تنعكس في دماغ الانسان ، المؤلف من ذرات اثبت علم الفيزياء في النهاية انها عبارة عن طاقات وقوى وتموجات ، وان لا وجود محسوسا لها . لذلك ينبغي ان نراجع الماركسية من الاساس .

حين اراد لينين ان يتصدى لماخ واقطاب هذه الفلسفة المثالية الرجعية ، المعادية للعلم والثورة ، فانه عكف على الاطلاع على أهم كتب الفيزياء ، والعلم وتاريخه ، وعلى المؤلفات الاساسية في فلسفة العلوم في عصره ، سافر الى سويسرا ، فالى فرنسا ، ثم الى بريطانيا ، ليدرس في مكتباتها ، جميع المراجع الاساسية في هذا الموضوع الخطير . بذلك تمكن من ان يدحض نظرية ماخ « النقدية التجريبية » وان يكشف عن مكامن الضعف والتزييف « العلمي » والاخطاء الفلسفية والانحرافات عن نهج ماركس العلمية .

فالمادية الجدلية ، لانها نظرية علمية ، تريد ان تكون دائما خلاقة ، دائمة التطور ، تجد ان لا بد لها من ان تستوعب باستمرار كل ما يحققه سير العلم من انجازات ، في جميع الميادين . لكن المادية الجدلية لا تأخذ كل شيء من كل منهج او من كل فلسفة، مهما كان بريق ـ او سطوع ـ هذه الفلسفة في زمنها كبيرا اخاذا . فماركس رفض المالتوسية منذ البدء ، يوم ان كانت موضع اجلال كبار علماء الاقتصاد في زمنه ، في بريطانيا والقارة الاوروبية ، ودحضها في هوامش « رأس المال » ، وأخذ الداروينية يوم ان كان كتاب « أصل الانواع » يعتبر تجديفا على المعرفة الصحيحة والحس السليم .

وليس المجال مجال تعداد كل ما اغتنت به المادية الجدلية ، طوال حياتها ، منذ زهاء مئة وثلاثين عاما ، من انجازات وابحاث الآخرين ، بمن فيهم اصحاب الفلسفات المخالفة للمادية الجدلية ، والمضادة لها في بعض الاحيان ، ومن العلماء الذين لم يكونوا ، في مفاهيمهم النظرية ، ماديين جدليين . هذا اذا جاءت تلك الابحاث انجازات تقدم المعرفة . ولكن تكفي الاشارة ، بالاضافة الى كون أغلب ابحاث ماركس وكتبه تنظيرا علميا لآلاف الوقائع والمعطيات والحقائق التي كان يأخذها من اعمال الباحثين الآخرين ، بالاضافة الى دراسته للواقع الثوري الحي ، حركة النظام الرأسمالي ، وحياة الطبقة العاملة ، ووقائع صراع الطبقات ـ أقول تكفي الاشارة في هذا الميدان الى كتاب فريدريك انجلس « اصل الاسرة ، والملكية الخاصة ، والدولة » . والمعروف ان الوقائع الرئيسية التي اعتمدها انجلس لصياغة نظريته عن المجتمعات القديمة ، ونشوء الملكية والاسرة والدولة ، انما اخذها من كتاب مورغان عن رحلاته عبر قبائل ومجتمعات بدائية جدا في جزر اوقيانيا والمحيط الهادي . والطريف ان انجلس ، ذلك المفكر العبقري ، والعالم الكبير ، قد اخذ تلك الوقائع ، حتى بأخطائها ...

طبعا هناك نواقص يمكن الاشارة اليها ، واخطاء ، فادحة احيانا، وحالات تقصير ، كانت او ما زالت تسجل على الماركسية ، في تطورها وتطبيقها ، لدى هذا الحزب او ذاك ، ومن قبل هذا المفكر او ذاك . لقد اشار الدكتور النويهي الى ان المادية الجدلية رفضت علم النفس التحليلي « الذي نحتاجه لاستكمال فهم النفس الانسانية وما يدور بها من صراعات وما يكمن فيها من « عقد » . وليس ما أقوله في تفسير ذلك تبريرا ، طالما انه قد اتضح لجميع الماديين الجدليين صحة شطر كبير من استنتاجات فرويد بعد دراساته وتجاربه السريرية ، لكن فرويد حين اطل منذ اواخر القرن الماضي بابحاثه في ميدان علم التحليل النفسي ، انما قدمها في كتب تجريبية ونظرية ، يشوبها الكثير من التفسيرات الاجتماعية والاستنتاجات الفلسفية التي بالغت في اعلان شأن الدافع الجنسي بحيث جعلته ركن الحضارة ، وركن الحرب والفناء وخراب الانسان ، في الوقت نفسه . ولم يكن في وسع الماديين الجدليين حينئذ ان يصغوا الى هذه الاستنتاجات . لقد كانت المادية الجدلية تقوم باعداد الشعوب لثورات جماهيرية جبارة ، ولم يجد قادة ومحضرو تلك الثورات ان هناك فائدة كبيرة لهم في الاخذ بمفاهيم «الليبيدو» و « الانا العليا » و « عقدة اوديب » وعقدة (بسيشيه) ، وسائر العقد ، الحقيقية والوهمية ، التي دل عليها العالم النمساوي الشهير . كان يعمل في روسيا حينئذ باحث اخر ، اسمه بافلوف ، الذي اكتشف قوانين فيزيولوجية علمية جديدة ، هي قوانين الارتكاسات المشروطة وغير المشروطة ،
Reflexes conditionnés et inconditionnés
واستطاع ان يمدها لدراسة النشاط العصبي ، والنشاط العصبي العالي (عمل الدماغ) وذلك وفق منهج تجريبي ونظري علمي بحت ، لذلك لم يكن في وسع الماديين الجدليين المهتمين بعلم النفس ، بما

فيه الطب العقلي ، ان يؤثروا ابحاث فرويد ، الشديدة التفرعات والتشويش والمبالغة ، والغارقة في بحر لا نهاية له من الصور الادبية والمقارنات التراثية ، فضلا عن المبالغة والغموض ، وذلك قبل استيعاب الطريقة البافلوفية في بحث حركة الاجهزة العضوية الحية ، وتتويجها : الجهاز العضوي للانسان . لذلك انصرف علماء النفس الماركسيون نحو بافلوف ، وآهملوا فرويد ، ومدرسته ، وذلك تقصير ، بالطبع ، اذ كان ينبغي فحص المعطيات السريرية والتجريبية العلمية التي قدمها فرويد ، واستيعابها ، وصياغة نظرية متكاملة في علم النفس ، الذي فدم حتى الآن العديد من العلماء الكبار ، والعديد من المعطيات الراسخة . لكنه ما زال ، في رأيي ، اقرب الى التجريبية منه الى العلم .

ليست المادية الجدلية ، كما سبق القول ، فلسفة نظرية تاملية ، ولو كانت كذلك ، لسهل عليها ان تزين حواشيها ، بل وصلبها ، بمفاهيم برغسون عن « الديمومة » و « التطور الخلاق » او المفاهيم الذرائعية او الظاهراتية او الوجودية ، وغيرها . لكن المادية الجدلية هي نظرية عمل ونضال وتغيير ، معيارها الاول الممارسة العملية وما يتجلى في تجارب الجماهير العاملة وحركة التاريخ من صدق هذا المفهوم او ذاك ، وصحة هذه المقولة او تلك ، وهذا لا يعني ان الجدلية هي ذرائعية ، فان نظرية الشعب الشغيل تحمل في ذاتها ، الى جانب مبادئها الجدلية وموقفها الثوري من واقع الاستغلال والاستثمار ، قيما خلقية وانسانية ، تبتعد بها عن كل ذرائعية .

« المادية الجدلية هي الطريقة العلمية الاساسية ـ والوحيدة ـ الصالحة لدراسة حركة الطبيعة والمجتمع والفكر وتأسيس نضال انساني على اساسها لتغيير حياة الانسان نحو الافضل » . هذا ما ورد في مقال سابق ، لي ، حاورت الدكتور النويهي فيه بصدد آرائه في مقاله الهام « النقد والماركسية والدين » .

فهل ان مثل هذه العبارة تسمح للدكتور النويهي بان يضعني بين « غلاة » الماديين الجدليين و « متعصبيهم » . لا يمكن الجواب على ذلك ان يكون بالايجاب . ذلك لانني حين اخترت المادية الجدلية اساسا للتفكير ، لا شك في انني أطلعت قبل ذلك على سائر « المناهج » والفلسفات التي كانت سائدة في ايام دراستي وتأملاتي وبحثي عن منهج لحياتي ، هي التالية :

كان هناك الوجودية ، لكنني حرت اية وجودية أتبع ، نزعة كيركفارد الفردية الذاتية المغلقة التي ترى ان الحياة كلها تختصر في فردية ذاتية يائسة تقف امام ـ او تحت ـ الله . ام وجودية هايدغر وياسبرز ، وكلاهما شأن فلسفة كيركفارد لم يكن لها مؤدى اجتماعي، كل من الفيلسوفين يحرك كثيرا من الافكار ، وبعضها ، لا سيما على النطاق الذاتي التاملي صحيح بل رائع ، ولكن لم يكن لدى الفيلسوفين الوجوديين الكبيرين رسالة اجتماعية ، ولكن ها هو مفكر لامع ، وكاتب مبدع ، وقلب جريء ، وضمير حي ، ومجادل فذ ، هو جان بول سارتر ، الذي يقرن ابحاثه الفلسفية المعمقة ، بمواقف نضالية وسياسية واجتماعية ، يمكن تسميتها « ثورية » . لكن المفارقة الاولى التي أبعدتني عن وجودية سارتر ، هي نوعية أتباعه في فرنسا ، أي حقيقة التطبيق والفهم الاجتماعيين لنظريته ، وهجومه على فلسفة اخرى كنت اقوم بدراستها حينئذ ، وهي المادية الجدلية، فكنت ارى ان ما يقدمه من حجج ضد الماركسية ، كان واهيا ، لا سيما وانني كنت اطلع في الوقت نفسه على ردود خصومه الماركسيين ، الذين كانوا اقوى حجة ، واعمق ايمانا بالشعب وقواه الشغيلة ، وكانوا يلبون ، لدى تطلعات عربي يشعر بذل الاستعمار والاستغلال ، ويتضامن مع آلام الناس الشغيلة . ان الحرية التي ينادي بها سارتر للشخص الانساني ، ونضاله تكيبني كل شخص وجوده كما يشاء ، انما هي مشروطة باوضاع طبقية واجتماعية ووافعية ، انتبه اليها سارتر فيما بعد . بل جاء يوم يقول فيه سارتر ان الماركسية هي فلسفة هذا العصر ، والفلسفة التي لا يمكن تجاوزها الا من خلالها ، اي عند تطويرها .

لكن ذلك الموقف جاء ، بالنسبة لي ، بعد فوات الاوان . ففي منتصف الخمسينات ، حين انضويت تحت لواء المادية الجدلية ، كانت المعركة في وطننا العربي معركة حياة او موت ضد الهجوم الامبريالي ، واحلافه ، وسمومه الفكرية ، وتضليله الثقافي . كذلك ، فقد نظرت حولي لارى المناضلين تحت شعار المادية الجدلية، في بلدي ، تنطبق افعالهم على اقوالهم ، ويبذلون جهودا جبارة لاستكمال تحرر بلدنا ، وجعله ينضوي في حركة الثورة العربية ، بكل قواه .

كانت هناك التومائية الجديدة ، وهي فلسفة غيبية تعدك بملكوت السماوات ، بلغة مشبعة بالمصطلحات العلمية ووهم التجديد.

كان هناك الفلسفة الظاهراتية . وبمقدار ما خلب لبي في البدء نقدها للفلسفة الميتافيزيقية الكلاسيكية ، خيب املي اقتصار هذه الفلسفة على وصف آلية التفكير ، وتعداد أنماطه ، ومسألة « الغصدية » وكيفية لقاء الفكر بالواقع . اما ذهاب الظاهراتية الى « الحسي » concret فقد ذهبت اليه لوصفه لا لتغييره . طبعا ، ان الطريقة الماركسية يمكنها ان تستفيد من صدق الوجوديين واخلاصهم ، رغم فرديتهم المطلقة ، كما يجب ان تفيد من قدرتهم العجيبة على التعبير ، وتعلقهم العارم بالحرية . ومن الظاهراتية ، يمكن ان تفيد المادية الجدلية من دقة اللغة الفلسفية ، وهدوء التحليل وعمقه .

كان هناك عملاق من عمالقة الفكر الغربي ، هو تيلهار دي شاردان ، لكن اهم ما توصل اليه هذا المناضل الكبير في سبيل العلم ، والذي كان عالما في اصول الانسان ، وباحثا مكتشفا ، ان اهم ما توصل اليه تيلهار كان الرابطة الحية بين الطبيعة والانسان ، وبين الانسان والفكر ، ولديه طبقة رابعة ، هي الانسان الامثل ، والذي تجسد ، كما يرى تيلهار ، في « المسيح » ، والذي يجب ان تسعى البشرية الى اكمال تطورها للوصول الى مستواه « المافوق البشري » . طبعا ، ان العناصر الجوهرية في فلسفة تيلهار ، الصلة بين الطبيعة والانسان والفكر ، كانت قد سبقته اليها المادية الجدلية منذ زمن طويل .

وأظن انه لا حاجة بي لتفنيد الفلسفة الذرائعية . فقد فصلت الفلسفة على طول الراسمالية الاميركية وعرضها ، فضلا عن هشاشة مرتكزاتها المنطقية . ان « الفلسفة » التي تقول ان كل ما ينجح هو حقيقي سواء اعتمد طريق السحر ، او الدين ، او الفاشية ، لا يمكن ان يتبناها ثوري عربي وحدوي . اما الوضعية الجديدة ، فان قولها بان القوانين العلمية هي مجرد صياغات ذهنية يوجد لها العقل منطقها الخاص ، وانحصار مؤسسها برتراند راسل في تحليلاته حول مناشىء الرياضيات ، وكونه لم يضف شيئا غير معروف في كتابه الضخم « تاريخ الفلسفة الغربية » قد ابعدني عن

الوضعية الجديدة كما ابعدني عنها بحثي عن مدرسة في الفكر ، تولي الانسان وحاجاته الاهتمام الاول ، ولم يكن ذلك شان الوضعية المنطقية الجديدة ولا هدفها

اما المادية الجدلية فشيء آخر تماما . وليس المجال مجال عرض مآثر هذا المنهج وانجازاته الاجتماعية والفكرية والعلمية . يكفي انه حرر ثلث البشرية حتى الآن من آفات الجوع ، والفقر ، والمرض ، والاستثمار ، والاستلاب ، وانه يمد يد المؤازرة لافطار العالم الثالث ، وفي طليعتها امتنا العربية ، وانه يقف بالمرصاد لوحش الامبريالية ، حاشدا قوى الشعوب وقدراتها ، حتى في الموطن الاساسي لهذا الوحش ، في الولايات المتحدة ، لانقاذ الحضارة الانسانية، وتحقيق تقدم البشر وتآخيهم وتضامنهم وتحررهم. أظن انه يستخلص بوضوح تام ، من كل ما اوردته نتائج عديدة اهمها موضوع النقاش مع الدكتور النويهي ، واعتقد انني اثبت بأن المادية الجدلية لم تغلق على نفسها الابواب ، وتتحصن ضد كل تطور او تأثر بالفلسفات والمناهج الاخرى ، ولكن مع بقائها على منطلقاتها الاساسية وهي مبادئها الجدلية . كما احسبني قد أثبت تفوق المادية الجدلية على سائر الفلسفات ، بشمولية مبادئها العلمية ، وترابط منهجها الذي يتأسس على قوانين عامة ، نجد تطبيقا لها في حركة الطبيعة ، وفي تطور المجتمعات وسير نضال شعوبها ، كما نجد ان قوانين الجدلية ماثلة في النشاط العقلي والفكري ، وارتباطه بالواقع ، بصفة ذلك النشاط انعكاسا جدليا لهذا الواقع ، يتأثر به ويؤثر فيه .

وبعد ، فالمادية الجدلية فلسفة شمولية علمية ، لذلك فالحقيقة ضالتها تأخذها أنى وجدتها ، وهي نظرية ثورية ، لذلك فهي انتقادية، لا تسمح بان يتسرب الى جسمها شيء من افكار المصالحة البورجوازية ، او المراجعة ، او التصفية ، او المثالية . انها فلسفة علمية مادية ، منهجية ، متكاملة ، تطور نفسها بنفسها ، في خدمة الناس الشغيلة .

تلك هي كلمتي الاخيرة في الحوار الذي سعدت به ، مع الدكتور النويهي ، لانه كان حوارا مع ناقد كبير ، وباحث جاد ، وانسان شريف ، تعلمت منه اثناء هذا الحوار العديد من الاشياء المفيدة والطيبة . والدكتور النويهي تحياتي واكباري .

محمد عيتاني

صدر حديثا عن

دار الرائد العربي

للتأليف والترجمة والنشر

بيروت ـ لبنان ـ هاتف : ٢٤٥٧٧٨ ـ ص . ب : ٦٥٨٥

ـ اخلاق القرآن : للدكتور احمد الشرباصي

يبحث في الاخلاق التي يجب ان يتحلى بها المسلمون ، وقد افرد المؤلف لكل خلق بحثا مستقلا عرضه بشكل واف رائع بحيث امتاز الكتاب بالدقة في البحث والوضوح في الافكار وبجمال الاسلوب وقوته .

ـ صراع : للدكتور احمد الشرباصي

مسرحية تدور حول القتال بين الحق والباطل .. الحق الذي يتمسك به المسلمون ويدافعون عنه ، والباطل الذي يتبعه الذين تمسكوا بالحياة الدنيا وعرضها وظنوها كل شيء .

ـ الطريق : للاستاذ محمد الخطيب

مسرحية تدور احداثها حول النضال العنيف ، يقوم به رجال آمنوا بحقهم ورضوا بالطريق الموصلة اليه .. طريق القوة والعنف .. طريق الفداء والتضحية وتقديم الارواح فدى للوطن .

ـ فلسفة الحركة الوطنية التحررية : للاستاذ نسيب نمر

كتاب ايدبولوجي وفلسفي يضع اسس الحركة الوطنية التحررية، ويناقش التحريفيين من القوميين السوريين والشيوعيين الكلاسيكيين وخروج روجيه غارودي عن اهم مرتكزات الاشتراكية العلمية وبروز صادق جلال العظم في « نقد الفكر الديني » مثاليا واضحا ، ويحدد الاطار المبدئي للارتباط بين المحتوى القومي والطبقي للثورة الفلسطينية .